

«.. ومروا من هنا»: شعارات تعبر الأزمنة.. بالخطاب عينه

كارل كوسا

«هم... كتابها وصانعوها. عبروا بها عن مواقف وشاعر آنية أو مزمنة انتابهم. أو بشروا. من خلالها -بأفكارهم و«إيديولوجياتهم» وأعلنوا عنها. ... و«هم»، جامعوها ومؤرخوها ومحللوها، نفسياً و«سوسيلوجياً». اجتمدوا -قدر المستطاع - وحاولوا وضع المجتمع اللبناني، بشرائحه كافة، في وقفة تأمل وتفكير ونقد مراجعة ذاتية لحسابته... على يتعلم، ولو لمرة، عبراً من دروس الماضي، قبل أن ينساه أو يتناساه.. كي لا يتكرر، بأخطائه، حرفياً. «هم... مروا من هنا، وهناك، تاركين بصماتهم وراءهم.. لتشير إلى «ما» مر أو «من» مر قبلهم. .. و«هم»، قرروا رصد ظاهرة اجتماعية، ليست لبنانية فحسب، ولكن أضفت حربنا «الإهلية» عليها مذاقات خاصة، غريبة، عجيبة.. غامضة، مثملاً. إننا نتكلم، قطعاً، على رسمي «كتابات الجدران» وراسدي هذه «المذكرات». الـ «Graffiti» أو الكتابات الجدارية طريقة سريعة لإيصال رسالة ما إلى المجتمع. لذلك قرر كل من لقمان سليم (مفكر وناشر، وصاحب جمعية «أمم») والمنتج المنفذ للعمل (وحسام مشيمش (مصور وفادي توفيق (المؤلف البصري وواضع النصوص المرافقة للصور).. قرروا الإضاءة على هذه الظاهرة في معرض أقاموه للغاية في هنتغار «أمم» الكائن في «حارة حريك»، تحت عنوان: «... ومروا من هنا، سياحة بين جدران بيروت».

(Top Ten)

حسام مشيمش الذي صور المجموعة الثانية أخيراً (بعد أن كان قد التقط المجموعة الأولى منها) سونا هوبول، السويدي عام ٢٠٠٢ يقول أنه كان يتجول «ميدانياً» في مناطق عدة من بيروت وضواحيها، مراقباً الجدران، فيصور ما يلفت انتباهه منها من كتابات، وقام «توفيق» بجمع مجموعتي صور ٢٠٠٢ و«٢٠٠٥»، واختيار ما يناسب المعرض منها، ومن ثم التعليق عليها، بعد تعريبها «مجموعات».

وزعت مجموعات اللوحات في المعرض على أساس موضوعاتها وليس حسب تسلسل زمني معين نذكر منها: (١٤/٢/٢٠٠٥، سعد، بهاء، حركة أمل، حزب الله، الشهداء، جعجج، بلاغة الفتوشوب، العشق، قصير، حاوي، بشير،... الخ..)

الشعار قدرة «إيديولوجية» على الصمود والبقاء أكثر منها زمنية. يستخلص فادي توفيق - ويضرب مثلاً لشرح الفكرة: شعار «بشير حي فينا» بقي في الـ (Top Ten) لمدة ٢٣ عاماً. وكان الشيخ بشير قد اغتيل أمس فقط، ومضى، مثلاً، على جريمة «حبيبة»، أكثر من ربع قرن، بتبني ما يذكر به أو من يخلده من على جدار شوارع بيروت. فالشعار - كما يتضح سليم - عابر للأزمنة، مؤكداً أن «عبور الزمن».. أهم فكرة من أفكار المعرض. لم تلق هذه الظاهرة اهتماماً إلا من خلال كتابي «ماريا شختورة» و«تحليل أحمد خليل».. ونقل منظمو المعرض، في لوحة تعريفية بتاريخ الـ (Graffiti) في لبنان - عن محمد أفندي بيهم - عضو مجالس المبعوثين - إيعازاً له ببعض الشبان بتعميم شعار تعلم يا فتى، فالجمل عار، على جدران العاصمة.



● صورة التقطها حسام مشيمش لأحد الجدران في العاصمة

الشعار رأساً على عقب. كما أن هناك شعارات سياسية مستنسخة من عبارات دينية معروفة. يتابع سليم - ويستشهد: «شعار» لا يوم كيومك يا أبا بهاء قد يراه البعض سطحيًا وعادياً. ولكن إذا أخضع لعملية (RMI)، لرايناها ضارباً بجذوره حيث لا تنتظر. فمؤلفه حسن النية. ولكنه نتاج ثقافة ومخزون دينيين.

حروب الغاء «أخرى».

كان «الحائط» وسيلة «إعلان» لأحزاب نشأت في الستينات. وما لبث أن أسس هدفًا تتصارع عليه الأحزاب كلها. حتى إذا اجتمع حزبان - كما جاء في تعريف أمم - في منطقة واحدة، كان أن اجتمعا أيضاً على هم واحد: «كيف السبيل إلى محو شعارات الأخرى؟» كتابة عن نزوع إلى محوه، سياسياً. بقدر ما تصح الكتابات السياسية (المسيطر) على

جدران بيروت، عن أهواء ساكنيها وتوزعهم ملا وطوائف، تروي هذه الصور ما تعانیه أحياء المدينة من مشكلات يومية، تنعكس عليها، لتفصح سلوكيات قاطنيها تجاهها.

فعبارة: «يك تنصر»، و«ينبي».. اللتان تنتشران، بكثافة، في المناطق «المسيحية» حول «صليب القوات» عادة «كانت الرد الطبيعي. كما يعلق فادي على هذه الصورة. للجماعة السياسية التي كانت تعتقد بأنهما مستهدفة ومهددة بالأفناء. هذا ما يبرز تحويل شعار «ونبي» إلى موقع الكتروني في ما بعد.

بعض شباب «الضاحية» يدورهم، عبروا - بطريقتهم - عن ولائهم ولجؤتهم واستغاثتهم بزعيمهم، كرجع «جماعي»: «أركننا يا بري» هاجس تلاشي «الأقليات» و«ضمحللها تجلى طائفيًا بشعار: «بدا نضل جراسنا نثق «المستوحى من خطاب لبشير الجميل.. كنوع من الولاء والوفاء

والحنين له، وكتحذير غير مباشر من عدم جدوى أي محاولات الغايتية.

مرآة «سياسية»

عندما علم أصدقاء «صالح» بأن صديقهم أت من السفر.. مهدوا لعودته، في حبه، كما تقول إحدى الصور، بجملة: «صالح راجع» التي تأثرت بحسب تعليق الشباب المكتوب. ولو حتى شكلياً أو من دون قصد بشعار سياسي كان مطروحاً آنذاك من قبل «التيار الوطني الحر».

يكاد يكون الرئيس الشهيد «الحريري» هو الشخصية الوحيدة التي توحدت حولها شعارات اللبنانيين، بعد استشهاده، ومن «أشهر» تلك الشعارات: «الحقيقة» المنتشر في كامل أرجاء لبنان كعطلب أساس مشترك، لا جدال أو نقاش فيه. التقيبات السياسية تنسحب إلى عالم الجدران أيضاً

لتواكب التطورات كشعار كان مدوناً قبل ١٤ شباط على الشكل التالي: «نعم للبنان وسوريا.. ولا للقرار ١٥٥٩» فأسمى من بعد هذا التاريخ: نعم للبنان، لا لسوريا. ونعم للقرار ١٥٥٩، فالجدران ليست مجرد أمكنة. يستخلص سليم - والدليل كما يقول انها لا تعيد نفسها. فلا شيء اسمه «Short cut»، في الثقافة، بل حبل خفي لا يراه سوى المراقبون (كالمصورين) التحذيرات والتهديدات الناتجة من مخاوف طائفية جسدها عبارة: «أحزروا غضب السنة، الموت لفيلق بدر (الإيراني).. كما أن «التزكيات» الرياضية لم تخل من «الحزازات» الطائفية كذلك فما هي صورة تنقل هذه المشاهد: «الأشرفية: حكمة وبس.. الضاحية: توتوت حكمة»، وأيضاً صورة لأشهر قريبي كرة قدم متناحرين: «شعار «النجمة»، يحوله سيف ذو الفقار»، وفي الضفة المقابلة: «أنصار وبس.. أه نجمة».

جدران.. لوطن واحد

كانت مجموعتا «العشق» و «الـ (Real Graffiti)» تحاولن كسر أطر السياسة والطائفية والحرب، التي كانت معظم المجموعات تدور حولهم، ففي الأولى: يسلط الشباب المنظفون الضوء مثلاً، على فكرة «العار» التي كانت غالباً ما تقرن بالحب، فيقولون لنا صورة لعاشق يشهر اسم حبيبته مكتوباً «علوية» على الملأ في مجتمع محافظ. وتعرض الثانية مشروع تخريج حول الـ «Graffiti» أنجزته «رنا مكتبي»، «ميدانياً على أحد جدران العاصمة، مرفقة إياه بكلمات أرادت منها تحدي العادات الاجتماعية في التفكير.. ولا سيما تلك المتعلقة بوضع المرأة. الشعار على جدار «حي». لا يجد اليوم - بعد إفرافات الحرب الديموقراطية، كما يرى المنظفون - رداً عليه، على الجدار عينه، وإنما على جدران أحياء أخرى، بعيدة عنه. في وضع كهذا، يختم منظمو أمم بالتعريف عن تاريخ هذه الكتابات، لا جدار يصلح «كعينة» نموذجية، على توزع اللبنانيين، سياسات ومواقف وأفكاراً، وإنما كل الجدران مجتمعة، صارت عينة على ما لت إليه المدينة، اليوم.

اخترع عنوان «.. ومروا من هنا» لأن أكثر كتابات الجدران شهرة، كانت عبارات: «فلان مر من هنا أو فلان.. أكان المارة عشاقاً أو سياسيين أو طائفيين.. إضافة إلى أن كلمة «مر» تفيد بمرور أزمان ماضية، هي احتلالات، على الأرجح، تناوبت علينا، ولم يبق منها، في النهاية، سوى ذكريات و «آثار» تذكر بها. يفتتح، بهذا المعرض سلسلة نشاطات تليه (من ٢٠٠٢ -٢٥ أيلول) تحت عنوان عريض وشامل لجميها: «حروب ذوي القربى... هنا وهناك، أياماً وروايات»، تتضمن عروض أفلام وندوات، تقام مجاناً على مسرح المدينة. يشارك أمم (جمعية تثقيفية وتوعوية، غير «ربحية»، تنبذ فلسفة الحروب ولا منطقتها وتدعو إلى ذاكرة جماعية حقيقية للسلام، لا إلى مستقبل «سلم» مهان)، وبشاركها في رعاية نشاط المعرض: الجامعة الأميركية في بيروت، الاتحاد الأوروبي، و «Mediterranean voices».

السؤال الذي يطرحه المعرض - من وجهة نظر المشاركين والمنظفين - هو «ما تمن الشعار المكتوب، بأرخص الأمان على جدار لا يمتلكه من كتب عليه أصلاً»، أو «يستتبع أحدهم موضحاً: «كيف تختبئ ومتى أن لكل كلمة تصدر منا فمن أو مسؤولية؟» رافضاً أن يكون التاريخ ملقاً بطوى من دون محاسبة ومساءلة شعبيتين، لايسيتين.